Signs of Victory in An-Nasr Surah

Dr. Ahmed Suleiman Awad Alrqb
Sharia and Islamic Studies-Faculty of Arts and Humanities
Applied Science Private University- Jordan
drriqib@gmail.com

Received 26/12/2013

Accepted 9/4/2014

Abstract

Surat Al Nasr Al Madaniah spoke about what Allah gifts, His Messenger and the believers of the brilliant victory and conquest set out, and the consequent number of people individuals and groups to engage in the religion of Islam, which requires further expand and praise of God and praise him and asked forgiveness from the Almighty so as not to deviate the nation in the case of victory for the right path.

Keywords: conquest ,victory

بشائر النصر في سورة النصر

د. أحمد سليمان عوض الرقب
قسم الشريعة والدراسات الإسلامية-كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة العلوم التطبيقية الخاصة -الأردن
driqib@gmail.com

تاريخ قبول البحث ٢٠١٤/٤/٩

تاريخ استلام البحث ٢٠١٣/١٢/٢٦

ملخص

سورة النصر سورة مدنية تحدثت عما أكرم الله به رسوله والمؤمنين من النصر المؤزر والفتح المبين، وما ترتب على ذلك من إقبال الناس أفراداً وجماعات على الدخول في دين الإسلام، مما يستلزم مزيداً من تعظيم الله وحمده والثناء عليه وطلب المغفرة منه سبحانه؛ كي لا تحيد الأمة في حالة النصر والظفر عن جادة الصواب.
الكلمات المفتاحية: الفتح، النصر.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً
والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد بن عبد
الله الصادق الأمين؛ وعلى من سار على دربه إلى يوم الدين، وبعد.
فالقرآن الكريم ربيع القلوب ونور الصدور، لا تقنى عجائبه في
كل سورة من سوره أو آية من آياته، وما على المرء إلا أن يعمل فكره
ويتدبر ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

أسئلة الدراسة:

عند التأمل يجد الباحث أسئلة كثيرة تدور حول السورة الكريمة
تحتاج إلى مزيد بحث ودراسة؛ منها:
- ما الفرق بين النصر والفتح؟ وما المقصود بالنصر والفتح في
السورة؟ ما معنى التسييح والتحميد والاستغفار الوارد في السورة
وعلاقة ذلك بالنصر؟ وغيرها من الأسئلة المهمة التي ستظهر
في الدراسة بعون المولى سبحانه.

الدراسات السابقة:

لا يخلو تفسير قديماً أو حديثاً من تفسير هذه السورة
العظيمة. ولكن هل من دراسة مستقلة عنيت بالبحث في آيات السورة
دون غيرها؟

كما أنني لم أجد في حدود اطلاعي -دراسة عنيت بالسورة
الكريمة بالرؤية التي طرحتها في خطة البحث، غير أنني ظفرت
بكتابين ذوي فوائد جمة اختصا بسورة النصر، هما:

الأول: تدارك بقية العمر في تدبر سورة النصر.^١

الثاني: تفسير سورة النصر لابن رجب الحنبلي.^٢

أما الكتاب الأول فقد حاول مؤلفه -جزاه الله خيراً- أن يحقق
جانباً من الروايات الواردة حول السورة غير أنه تجاوز عن كثير
منها. وحاول المؤلف كذلك تلمس القيم الموجودة في السورة لكنه لم
يبرزها في صورة منهجية متكاملة.

وأما الكتاب الثاني^٣، فهو رسالة ضافية لابن رجب الحنبلي في
تفسير سورة النصر، تناول فيها السورة من حيث مفرداتها ودلالاتها،
وذكر من خلال تفسيره لها إشارات مهمة، ويبقى تفسيره للسورة على
أهميته في دائرة التفسير الإجمالي أحياناً أو التحليلي أحياناً آخر.

وفي هذه الدراسة وقفت عند آخر سورة نزلت من القرآن الكريم،
سورة النصر؛ فوجدتني أمام جملة من الفوائد والفرائد واللطائف والقيم
والآداب، تجتمع لتشكل منهجية حضارية متكاملة، تقف بالأمة على
صراط مستقيم، وبالذات عند تحقيق الظفر وما يتبعه من نشوة
الانتصار وزهوه.

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية دراسة هذه السورة من جهات كثيرة أبرزها:

- كونها آخر سورة من القرآن وما تحمله من البشارات والإشارات.
- ما تمثله السورة من الحديث عن مرحلة جديدة من تحقيق النصر
والفتح وما يتصل بذلك من قيم وآداب.

أهداف الدراسة:

١. جمع الفوائد واللطائف البيانية المكونة في كتب التفسير وغيرها
والمتصلة بالسورة؛ وتقديمها في صورة من التكامل والشمول.
٢. استخراج القيم والآداب المكنوزة في السورة كمعالم منهجية
تضبط سلوك الأمة عند تحقيق الانتصارات والإنجازات.
٣. تتبع الروايات الواردة بشأن السورة وتمحيصها وتمييز بعضها
من بعض.

الأولى: أنها دلت على واقعة بعينها على رأي جمهور المفسرين وهو فتح مكة؛ فسميت بسورة الفتح.

الثانية: ورود اللفظ في مفتحتها ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، وهذا سنن موجود في القرآن كله أن تسمى السورة مما ورد فيها من ألفاظ ظاهرة. ولكن قد يستدرك على هذا الاسم أنه قد يثير إشكالاً أو لبساً عند العامة باعتبار اشتراكه مع سورة سابقة من حيث ترتيب المصحف الكريم هي سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [سورة الفتح: ١].

٤. سورة التوديع.^٨

والظاهر أن هذا الاسم توفيقى استخلصه الأجل^٥ من الصحابة والعلماء وذلك بالنظر إلى:

- ما في السورة من الإيحاء إلى أجل ونعي رسول الله □.
- وأن الحق سبحانه أمر حبيبه محمداً □ أن يفرغ للتسبيح والحمد والاستغفار، واشتغاله بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الأمة؛ فكأن هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يقتضي انقضاء الأجل.^٩
- وقيل لأنه سبحانه وتعالى أمره بتجديد التوحيد واستدراك الفائت بالاستغفار، وذلك مما يلزم عند الانتقال من هذه الدار إلى دار الأبرار.^{١٠}

المطلب الثاني: مكان نزولها وموضوعها.

يكاد الإجماع ينعقد على مدنيته^{١١}، وإن ورد قول غريب^{١٢}، مرجوح بمكيته، ولعل من قال بهذا نظر إلى مكان النزول ولم يلتفت إلى تقسيم العلماء باعتبار الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة قبلاً أو بعداً.

موضوعها:

تحمل السورة على وجازتها وقصر آياتها بشارات وأوامر وإشارات وآداب.^{١٣}

أما البشارات:

- فنصر الله تعالى رسوله □ وللمؤمنين وظهور هذا الدين.
- وفتح مكة والمدائن والبلدان والقصور.
- ودخول الناس من العرب والعجم في دين الله أفواجاً.

وأما الأوامر:

- فالتسبيح.
- والحمد.
- والاستغفار.

وأما الإشارات:

- فاستمرار الفتوحات والانتصارات لهذا الدين.
- والإشارة إلى أجل رسول الله وانتقاله إلى دار الحق.

كما أنني وعند فراغي من البحث ظفرت بدراسة للباحث محمد محمود الدومي بعنوان معالم النصر في سورة النصر^٤، صدرت عن مجلة دبي للدراسات العربية الإسلامية عدد ٣٢/يونيو ٢٠١٢. فيها شيء من التقارب والتجانب مع بحثي هذا، خاصة ما يتصل بالأمور الأساسية في مقدمات السورة، إلا أن المنهجية مختلفة تماماً، فالمحور الذي يدور حوله الباحث البشائر المثبتة في السورة، بينما أتوجه في بحثي هذا إضافة إلى البشائر إلى موضوع في غاية الأهمية وهو آداب النصر وكيف تحافظ الأمة وهي في أوج قوتها على توازنها وأخلاقها وآدابها وذاتيتها الحضارية المشرفة.

مناهج البحث:

يقوم هذا البحث على المنهج التحليلي ومنهج المقارنة والموازنة.

خطة البحث:

تمهيد:

النصر قبل وقوعه محتاج إلى جهود ترقى للوصول إليه، وهناك عند حصوله منعطف خطير قد يرقى بالنفس البشرية والأمة أعلى درجات الكمال سماحةً وشفاعاً عند المقدر، وقد ينزل بها أسفل سافلين زهواً وبطراً وبطشاً وانتقاماً وإهلاكاً للحرث والنسل.

المبحث الأول: التعريف بسورة النصر.

المطلب الأول: أسماؤها.

تعددت أسماء السورة بحسب أصل نزولها أو موضوعها؛ بالرغم من قصر آياتها، وهذا دالٌّ على مدى الاهتمام والعناية بها؛ فقد ذكرت بأسماء عدة، هي:

١. سورة النصر.

وهو الاسم التوقيفي الدائع المشهور، وما أعظمه من اسم يشفي الصدور، ويذهب غيظ قلوب قوم مؤمنين، وما أجمل أن يختم الوحي بسورة كاملة بهذا الاسم العظيم.

٢. سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾.

هكذا نقل تسميتها الإمام البخاري رحمه الله -قال: باب:

تفسير سورة: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾. (النصر) واستند إلى حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: ما صلى النبي □ صلاةً بعد أن نزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي).^٥

وفي حديث الترمذي في فضائل السور أن النبي □ سأل

رجلاً: أليس معك ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾؟^٦

٣. سورة الفتح.

أثبت الإمام الترمذي هذا الاسم صراحةً، ولعل هذه التسمية جاءت من جهتين:

وأما الآداب:

فلا يخلو حرف في السورة من الإشارة إليها، من أولها إلى آخرها فالنصر من عند المولى سبحانه وهو وحده المستحق للحمد والثناء.

المطلب الثالث: فضائلها.

حَفَّ بالسورة العديد من الفضائل، والصحيح بعد التحقيق منها أنها:

١. آخر سورة نزلت تامة على قلب رسول الله ﷺ.

فمن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس تعلم وقال هارون: تدري آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعاً قلت: نعم. إذا جاء نصر الله والفتح، قال: صدقت.^{١٤}

٢. ربع القرآن ومفتاح الخير والبركة، فمن أنس بن مالك أن رسول

الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: "هل تزوجت يا فلان؟" قال: لا

والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: "أليس معك

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟" قال: بلى، قال: "ثلث القرآن"، قال: "أليس

معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾"، قال: بلى، قال: "ربع

القرآن"، قال: "أليس معك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾"، قال: بلى،

قال: "ربع القرآن"، قال: "أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ

زُلْزَلَهَا﴾"، قال: بلى، قال: "ربع القرآن"، قال: "تزوج تزوج".^{١٥}

المبحث الثاني: تفسير السورة.

المطلب الأول: "إذا جاء نصر الله والفتح".

- ما وظيفة (إذا) وما دلالاتها؟

تجيء (إذا) ظرف زمان وحق زمانها أن يكون مستقبلاً؛ وقد

تستعمل للماضي من الزمان^{١٦} بمعنى (إذ) نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ

اللَّهُوِّ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].^{١٧}

وعلى المعنى الأول - الاستقبال - يكون الحديث عن

المستقبل فإذا تحقق هذان الأمران العظيمان:

١. النصر والفتح.

٢. ودخول الناس في دين الله أفواجا.

فليكن من أمرك يا محمد المزيد من التسبيح والحمد

والاستغفار؛ فقد انتهت مهمتك في التبليغ والدعوة فتعباً للرحيل

والوداع.

وهذا الرأي وجيه من جهات كثيرة؛ أبرزها:

- إطلاق الألفاظ (نصر الله، والفتح، الناس) على ظواهرها دون قيد

وهو منهج أصيل في تفسير القرآن العظيم وفهمه.

- تفسير (إذا) باعتبار أصلها الدالّ على الزمان المستقبل.

- الجمع بين فتوحات كثيرة سابقة ولاحقة من أخذ بالمعنى الكلي

والجزئي لكل من (نصر الله) و(الفتح) دون أن يرتبطا بحادثة

بعينها، وعلى هذا تكون اللام في (الفتح) للجنس، وتكون

الإضافة (نصر الله) دالّة على الشمول والعموم، وبالجملة يكون

الحديث عن الفتوحات المعنوية والمادية، وما يدرك بالبصر

والبصيرة.

- الاتفاق والانسجام مع المنهج القرآني من الإشارات والبشارات،

فيكون هذا من جملة معالم ظهور نبوة محمد ﷺ الدال على

صدقه وتأييد القرآن له.

- ثم إنني تتبعت السور التي افتتحت بهذا اللفظ الكريم (إذا)

فوجدتها تتفق من حيث الحديث عن المستقبل.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

وأخيراً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

والحديث فيها ظاهر عن المستقبل القادم وهذه إشارة مهمة في

ترجيح ما نحن بصده، ومما يرجح الاستقبال فيها كذلك حرف الفاء

الرابط لجواب الشرط.^{١٨}

وكأن الرابط بين ما سبق من الظواهر والنصر والفتح (كورت،

انفطرت، انشقت، زلزلت) من جهتين:

الأولى: أن التغيير ناموس رباني كوني قادم لا محالة.

الثانية: أن النصر والفتح والعاقبة الحسنة للمتقين شأن إلهي محض

كشأن ما سبق من الظواهر.

أما قول الحق سبحانه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ﴾ فأعتقد أن

الأمر جلي لا يخفى؛ فالنفاق لازمة وظاهرة لا تنفك عن ميدان

الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل في كل عصر ومصر.

• المعنى الثاني: (إذ) الماضي.

وعلى هذا المعنى يكون نزول السورة بعد.

- فتح مكة.

- ودخول الناس في دين الله أفواجا.

فيكون المعنى؛ أما وقد تم الفتح-فتح مكة - ودخل الناس من

قبائل العرب وما حولها في دين الله أفواجا فتوجه إلى ريك يا محمد -

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على محمد-بالتسبيح والحمد والاستغفار قبل أن يوافيك الأجل القريب.

المطلب الثاني: ما معنى النصر والفتح في لسان العرب؟ وما الفرق بينهما؟

لا تخرج معاني مادة (نصر) عن:

- إتيان خير.

- العطاء.^{١٩}

- العون.^{٢٠}

أما معاني مادة (فتح) فأجملها فيما يلي^{٢١}:

- خلاف الإغلاق، وفتح ما استغلق من العلوم.

- الحكم والصلح والفصل والقضاء.

- النصر والظفر وافتتاح دار الحرب.

و(الفتح) جاء في القرآن الكريم، على أنحاء عدة، أبرزها فيما يتصل بالبحث هنا:

أولاً: الفتح المبين ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [سورة الفتح: ١]. جزم الزمخشري بأن الفتح المبين هاهنا فتح مكة^{٢٢} وذكر البغوي وابن الجوزي أن الأكثرين على أنه صلح الحديبية^{٢٣}. أو أن يكون المعنى إنا فتحنا لك فتحاً بيناً ظاهراً فارقاً بين الحق والباطل^{٢٤}.

ثانياً: الفتح القريب: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]. ما المقصود بالفتح القريب؟

هو فتح خيبر؛ جزم بذلك الزمخشري^{٢٥}، وتردد ابن عطية^{٢٦} بين فتح خيبر وفتح مكة، ورجح الفخر الرازي^{٢٧} أنه فتح خيبر، وتبعه في ذلك أبو حيان^{٢٨}، وأطلق ابن كثير^{٢٩} القول بأنه ما ترتب على صلح الحديبية من خير مستمر متصل بفتح خيبر وفتح مكة وفتح سائر البلدان والأقاليم فضلاً عما حصل بذلك من العز والرفعة في الدنيا والآخرة.

- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧] ما هو الفتح القريب هنا؟

١. فتح خيبر: قال بذلك الزمخشري^{٣٠} فالفتح القريب عنده المعهود سابقاً هو خيبر.

٢. الفتح هنا على عمومته وإطلاقه، أطلق القول بذلك ابن عطية^{٣١} بقوله: ويحسن أن يكون الفتح ههنا اسم جنس يضم كل ما وقع للنبي ﷺ مما له فيه ظهور وفتح. وما ذكره ابن عطية حق فيما أرى إذ إن الرؤيا الواردة في الآية الكريمة تحمل البشرى والوعد

بشيء جزيل قادم، وتردد الفخر الرازي^{٣٢} بين صلح الحديبية وفتح خيبر.

٣. الصلح؛ ذكر هذا المعنى ابن كثير^{٣٣} ولا ريب أنه يعني صلح الحديبية وما ترتب عليه من خير كبير ونفع عظيم.

- ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣].

والظاهر أن المقصود بالفتح القريب هنا فتح مكة والله أعلم.^{٣٤}

ثالثاً: الفتح المطلق:

قوله سبحانه ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ﴾

[الحديد: ١٠]، والمقصود بالفتح هنا عند جمهور المفسرين فتح قريب، ورجح الإمام الطبري^{٣٥} كونه فتح الحديبية، وهو ما رجحه الإمام السعدي من المعاصرين، وذكر مرجحات مهمة حاصلها:

- هو أعظم الفتوحات-الحديبية-التي حصل بعدها نشر الإسلام والدعوة إلى الإسلام دون معارض.

- وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها؛ كالمدينة وتوابعها.

- وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها يؤذى ويخاف؛ فذلك كان من أسلم من قبل الفتح وأنفق وقاتل أعظم درجة وأجرأ وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة.

- غالب السابقين من فضلاء الصحابة أسلموا قبل الفتح.

وهذا الوجه الأخير الذي أسعد به الشيخ السعدي فيه خير عظيم من حيث نيل الشرف والفضل للكثير الكثير من الصحابة الذين أسلموا قبل صلح الحديبية.

أما قوله سبحانه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١].

فأستطيع أن أجمل أقوال المفسرين في المقصود ب (الفتح) في الآية الكريمة فيما يلي:

١. فتح البلاد على الإطلاق.

٢. فتح مكة.

٣. فتح مكة والطائف ومدین والحجاز والحصون وكثير من بلاد اليمن.

٤. فتح خيبر.

٥. فتح الطائف.

٦. فتح العلوم.

والأقوال المذكورة بحسب المضي أو الاستقبال في (إذا)

تتلخص في اتجاهين:

الأول: فتح خيبر وفتح مكة على أن (إذا) بمعنى (إذ).

الثاني: فتح البلاد على المعنى المقيد بفتح خيبر ومكة؛ الطائف ومدین والحجاز وكثير من بلاد اليمن والحصون، أو فتح

- وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام، وأعظم الفتح فتحان: فتح الحديبية، وفتح مكة.

***الفنقلة:** اشتهر بذلك الإمام الزمخشري وهي أن يعرض مسألة ويجب على النحو التالي: فإن قلت كذا..... قلت كذا....

فالنصر تمهيد للفتح وقضاء على دولة الشرك في الجزيرة^{٤١}. وعلى هذا يكون من قبيل الخاص بعد العام؛ فالنصر عام والفتح خاص، وعطف (الفتح) على النصر تنويه بشأنه^{٤٢}.

المطلب الثالث: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

- ما المراد ب(الناس)؟

١. المراد بالناس العموم؛ ذكر ذلك غير واحد من المفسرين^{٤٣}.
٢. أنهم أهل اليمن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية"^{٤٤}.
٣. قال ابن رجب: وهذا يدل لا على اختصاص أهل اليمن بالناس المذكورين في الآية؛ وإنما يدل على أنهم داخلون في ذلك، فإن الناس أعم من أهل اليمن^{٤٥}، وهذا حق ولكن ذكر أهل اليمن دالاً على فضلهم، وقد ذكر أهل العلم توجيهات لطيفة في ذلك^{٤٥}.

- قال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن؛ وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين، طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرعون القرآن، وبعضهم يهللون؛ فسُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وأبو بكر وعمر وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

- فكان ما سبق من تتابع دخول أهل اليمن في الإسلام من تفتيس الكرب على الرسول ﷺ والمسلمين ما الله به عليم.

قال ابن عبد البر: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافراً، بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف، ومنهم من قدم، ومنهم من قدم وإفداً، ثم بعد الردة كان ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين^{٤٦}.

٤. العرب عبدة الأوثان: قال ابن عطية^{٤٧}: المراد -والله أعلم- العرب عبدة الأوثان. وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة الرسول ﷺ، لكن أعطوا الجزية.

٥. جميع وفود العرب^{٤٨}؛ لأنهم قالوا: إذا فتح الحرم لمحمد ﷺ وقد حماه ربه من الحبشة وأصحاب الفيل وغيرهم فليس لكم به يدان. وعلى هذا القول الثاني والثالث والرابع يكون لفظ (الناس) عاماً أريد به الخاص، فلفظ الناس عام، والمراد به العرب.

٦. ولكن القول الأول هو الصحيح إن شاء الله فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً في الجزيرة العربية وغيرها من البلدان

البلاد على المعنى العام الواسع جزياً على الاستقبال في (إذا).

أما القول السادس فهو بعيد فيما أرى؛ إذ إن الحبيب ﷺ فتح له بذلك بالنبوة من أول الأمر، وما صدق ذلك من نزول القرآن ومثله معه.

ولا تعارض بين الأقوال الأول والثاني والثالث والخامس؛ فإن فتح مكة هو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه، أو على حد تعبير أبي السعود هو مفتاح الفتوح ومناطقها، كما أن مكة نفسها أم القرى وإمامها، فجعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح.

أما القول الرابع - فتح خيبر - فقد سبق الحديث عنه في سورة الفتح ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

كما أن الفتح المذكور في سورة النصر اقترن بأمر غاية في الأهمية وهو دخول الناس في دين الله أفواجاً، وهو أكثر ظهوراً بعد فتح مكة.

ما الفرق بين (النصر) و(الفتح)؟

أود بادئ الأمر أن أشير إلى أن هذين اللفظين الحبيبين اجتماعاً معاً في القرآن الكريم مرتين فحسب. وما أجمل اجتماعهما ومحل اجتماعهما!

المرّة الأولى: ﴿وَأُخْرَى نُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

والمرّة الثانية - ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

- وأبدأ هنا مع الإمام الزمخشري في فنقلته^{٤٦} الأنيقة والدقيقة. قال: "قلت ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ قلت: النصر: الإظهار على العدو. ومنه نصر الله الأرض غائثها. والفتح: فتح البلاد"، وما أفهمه من كلام الزمخشري أن النصر ليس بالضرورة أن يتم بعده فتح؛ فقد ينتصر جيش على جيش دون أن يكون للنصر حقيقة كائنة على الأرض أعني دخول بلاد المهزوم؛ ومن هنا قيل: فتح خيبر، فتح الطائف.. الخ، وهو معنى مליح صحيح. وقد اجتمع في دخول مكة الفضلان معا: النصر والفتح، فكان لهما ما بعدهما، والله الحمد والمئة والثناء الحسن.

والظاهر -كذلك- أن النصر كالسبب للفتح؛ فلماذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه^{٤٧}، كما أن الملحوظ في معنى النصر المعونة، وفي معنى الفتح الفصل بينه ﷺ وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته^{٤٨}.

- والنصر يكون في معارك القتال، ويكون بالحجة والسلطان، ويكون بكف العدو، فهو في الجملة عام^{٤٩}.

التي وصلتها رسل رسول الله ﷻ ورسائله إلى العرب وغيرهم.

• معنى (أفواجاً):

الفاء والواو والجيم تدل على تجمع من ذلك الفوج، والفوج: الجماعة من الناس، والجمع أفواج.

ويلحظ معنى السرعة كذلك وهو معنى مهم ذكره الراغب^{٤٩}، قال: الفوج: الجماعة المارة المسرعة. وأضاف ابن رجب معنى آخر جديراً بالانتباه، قال: والأفواج: الجماعة إثر الجماعة^{٥٠}.

ولم ترد (أفواجاً) بالجمع في القرآن الكريم إلا في موضعين وذكرت بالإفراد ثلاث مرات، وغالب مواضع ذكرها في القرآن المجيد في سياق الحديث عن يوم القيامة^{٥١}، كما أن مجموع المواضع الخمسة المذكورة جاء في سور مكية ما عدا موضعاً واحداً في سورة النصر المدنية، ولا غرو؛ فقد تغير الحال من تلك الفترة من تكالب الناس على الشرك والكفر إلى دخولهم في دين الله أفواجاً.

وخلاصة ما سبق أن معاني (أفواجاً) يلحظ فيها ما يلي:

- التجمع.
- التتابع، فوج إثر فوج دون انقطاع.
- الكثرة.
- السرعة.

وكما تعلم فإن يوم القيامة تزدحم فيه الخلائق تغد السير فيه إلى مصيرها المحتوم، وإن النصر الذي تحققه يا محمد أنت وأصحابك وأتباعك من بعدك تجتمع فيه العناصر الأربعة السابقة من حيث التجمع والكثرة والسرعة والتتابع، وهذه بشارة بل بشارات تشير إلى سرعة انتشار هذا الدين في أنحاء المعمورة حاضراً ومستقبلاً.

وتجمع الناس حوله ﷻ وحول منهجه من كل حذب وصوب يزيدون ولا ينقصون معجزة ظاهرة من معجزات القرآن الكريم؛ إذ أخبر عما هو كائن وما يكون كيف سيكون، فله الحمد والممة والثناء الحسن.

المطلب الرابع: قول الحق سبحانه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ

إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

في هذه الآية العظيمة يطلب ربنا سبحانه من حبيبه محمد ﷻ ومن كل من سار على دربه:

- التسبيح.
- والحمد.
- والاستغفار.

ومادة (سبح) في لسان العرب تعود في جملتها إلى ما يلي:^{٥٢}

- التنزيه.
- والسرعة إليه سبحانه والخفة في طاعته.
- والصلاة والذكر.

وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية^{٥٣}.

أما الحمد لله تعالى فهو الثناء عليه سبحانه بالفضيلة^{٥٤}.

• والجمع بين التسبيح والحمد والاستغفار لم يأت إلا في موضعين من القرآن الكريم، جاء بصيغة الطلب والأمر للحبيب محمد ﷻ.

الموضع الأول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

الموضع الثاني: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة الفتح].

وكما يظهر فالموضع الأول من سورة غافر قدم فيه الاستغفار على التسبيح والحمد، وهذا مناسب؛ فهي سورة (غافر)، وابتدأت بـ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

أما الموضع الثاني من سورة النصر فالمناسبة ظاهرة من حيث تحقيق النصر وما يتبعه من الاستغفار مما سيظهر في البحث تالياً بعون الله تعالى.

ولا بأس من التنبيه في هذا المقام إلى أن طلب الاستغفار وحده من الحبيب محمد ﷻ بصيغة الأمر جاء في مواضع أربعة من القرآن الكريم^{٥٥}:

١. ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

٢. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

٣. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

٤. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر].

واللافت للنظر أن المواضع الأربعة تتوجه نحو استغفار النبي ﷻ لأصحابه بطلب منه جلّ جلاله وتقدست أسماؤه خلا موضع واحد من سورة الفتح حكاية عن الأعراب ﴿شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]. وهذا دالٌّ على مقامه العظيم ﷻ عند ربه فضلاً عن جميل فضله سبحانه على عباده أن يطلب من حبه وحبيبه أن يستغفر لأصحابه وأتباعه؛ وهذا من أعمال الملائكة المقربين كذلك ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وتحضرني لطيفة ههنا أن هذا الفضل السابغ لم يكن إلا للحبيب المصطفى ﷻ دون غيره من إخوانه الأنبياء؛ فأبراهيم الصديق عليه السلام جهد في الاستغفار لأبيه ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مریم: ٤٧]، وعوتب على ذلك ﴿إِلَّا قَوْلَ إِذْ رَاهِمِمْ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، ويوسف الكريم وعد

وعند التأمل يلحظ الباحث ما يلي:

- السور الستة الأولى كلها سور مكية خلا سورة واحدة هي سورة النصر فهي مدنية.
 - تجتمع في الآيات المذكورة عناصر مهمة للعبادات: السجود، التوكل، الذكر، الصبر، الاستغفار، وهي أسباب رئيسة من أسباب النصر والظفر.
 - التقديم والتأخير؛ فقد قدم الاستغفار ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، بينما كان حظه التأخير في سورة النصر ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.
- فاستغفار سبق النصر وسار معه، واستغفار جاء بعد النصر وواكبه، وعلى الحالين هذا دأب المؤمنين أطراح أنفسهم في مقام التقصير؛ جاء الإنجاز أم بلغ أوجه ورفرفت آياته.
- المطلب السادس: آداب النصر.**
- إن كل حرف وكلمة في السورة من أولها إلى آخرها يشير إلى هذا الموضوع المهم.
- أولاً:** النصر من عند الله وهذا ظاهر في الآية الكريمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ﴾، من حيث إضافة النصر وإسناده إلى لفظ الجلالة (نصر الله) وتأمل طائفة من الآيات تزيد الإشارة في السابقة نوراً وتأكيداً.
- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَلَّوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِبِهِمُ الْبِأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].
 - ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].
 - ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].
 - ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].
 - ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥].
- إن إسناد النصر إلى صاحب الفضل سبحانه يلقي في روع أهل الحق الطمأنينة والأمل، ويرسخ عندهم اليقين بمعونة الله وتأييده ونصره.
- وما يسترعي الانتباه في الآيات المذكورة هذه التأكيدات العجيبة:
- ألا، إن، الجملة الاسمية.
 - أسلوب الحصر والقصر؛ وما النصر إلا من عند الله.
 - لفظ الاختصاص (عند).
 - اجتماع هذين الاسمين الكريمين (العزیز، الحكيم)، فالعزیز القوي الغالب الذي لا يمنعه شيء، والحكيم، الذي يقدر النصر بحسب حكمته وتدبيره.
 - ثم لاحظ هذا التأكيد (لقد) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.
 - (لقد) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

إخوانه أن يستغفر لهم ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]. أما نوح عليه السلام فإنه يطرح نفسه في مقام التقصير في آخر أمره ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

لكن محمداً □ يطلب منه أن يستغفر لأصحابه وأتباعه:

- ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].
- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].
- ﴿فَبِأَبْغِضٍ هُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢].

وهنا تتراءى عبقرية ابن عباس رضي الله عنه عندما استنتج من نزول سورة النصر دنو أجل رسول الله □، إذ إن الله جل وعز جعل للأمة أمانين من عذابه وغضبه:

الأول: وجوده □ واستغفاره لأمته.

الثاني: الاستغفار.

قال الحق سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فلما كرر الأمر بالاستغفار الذي هو الأمان الثاني في السورة التي نزلت عليه في حجة الوداع -سورة النصر- كان مشعراً بأن الأمان الأول انقضى زمانه، وأنه ينبغي للأمة المواظبة على الأمان الثاني والاجتهاد فيه، وأكد لهم الأمر بذلك بتوجيه الخطاب فيه للنبي □ خاصة، لأن أمر الرئيس أذعى إلى امتثال أتباعه.

• والجمع بين التسييح والحمد بصيغة الأمر المفرد إلى الرسول □ جاء في سبعة مواضع من القرآن المجيد^{٥٦}:

١. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨].
٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].
٣. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْنُوبِ عِبَادِهِ حَبِيبًا﴾ [الفرقان: ٥٨].
٤. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥].
٥. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].
٦. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].
٧. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

ثانياً: موعد النصر أمر إلهي محض ولكنه قريب على أي حال.
﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ
اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

- ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾
[يوسف: ١١٠].
- ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

ولذلك عبر سبحانه عن حصول النصر بالمجيء ﴿إِذَا جَاءَ
نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ تجوزاً للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل
إلى أوقاتها المعينة لها، وهذا يقتضي المزيد من العمل والاعتصام
بالله سبحانه ترقباً لورود النصر والفتح، واستعداداً للشكر والثناء على
صاحب الفضل سبحانه.

كما أن ارتباط الوعد بالحق سبحانه يرسخ معاني العبودية
الكاملة لله سبحانه، فالأمر كله لله وما أنتم إلا أدوات القدر الرباني،
وإنما هي إحدى الحسينين إما النصر وإما الشهادة، ومن هنا نجد أن
الحديث عن سنن النصر في القرآن الكريم اقترن كثيراً بالتوكل.

يظهر هذا المعنى في قول الحق سبحانه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾
فالنصر بإذنه وأمره سبحانه وهذا من شأنه أن يرسخ معاني الربوبية
عند التلة المؤمنة المجاهدة؛ (فسبح بحمد ربك..). فالأمر منه واليه
سبحانه.

ثالثاً: العبودية والتواضع والإخبات والصفح والعفو.

فإذا ما استيقن العبد أن النصر من عند الله سبحانه، وأن موعد
النصر لا يعلمه إلا الله سبحانه ولا يقع إلا بإذنه، وأن النصر فضل
محض من الله سبحانه؛ تواضع وأناج، وتمثل بالإخلاق العظيمة
الفاضلة، وطأطأ رأسه اعترافاً بالمنة، وطامن كبريائه عرفاناً بالنعمة،
وكان النموذج النبوي في أسمى مقاماته حاضراً في كل نصر وفتح،
وظهر هذا أجمل ما يكون في الفتح الأعظم فتح مكة. قال ابن
اسحاق حدثني عبدالله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى
ذات طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإن رسول
الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح،
حتى إن عثونه ليكاد يمس واسطة الرجل^{٥٧}.

وانظر قمة التواضع والعبودية لله سبحانه من الحبيب ﷺ عند
الفتح عندما نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار -بين يديه-
وخلفه وحولته، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه،
ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً،
فجعل يطعنهما بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنََّّ

الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، والأصنام تتساقط على وجوهها^{٥٨}.

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار
الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع، وقف
وصلى هناك؛ ثم دار في البيت وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح
الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ
بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده... يا معشر قریش ماذا
تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم، قال:
"فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا
فأنتم الطلقاء"^{٥٩}.

ثم جلس في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله
عنه، ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع
السقاية صلى الله عليك، فقال رسول ﷺ: "أين عثمان بن أبي طلحة"
؟ فدعي له، فقال له: "هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برِّ
ووفاء"^{٦٠}.

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاعتسل
وصلى ثماني ركعات في بيتها، كانت ضحى، فظنها من ظنها صلاة
الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً
أو بلدًا صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله ﷺ^{٦١}.

في نهاية هذا البحث يسرني أن أبرز الأفكار الآتية:

- النصر مطلب فطري مشروع تسعد به النفوس في ظل الصراع بين
الحق والباطل.
- موعد النصر وما يتصل به من نتائج أو تقديم أو تأخير أمر إلهي
محض يقدره المولى سبحانه وفق مشيئته وحكمته.
- للنصر أسباب ونواميس وسنن تحقيقها يأتي بالفرج والظفر بإذن الله
تعالى.
- كما أن للنصر ضوابط وأداباً ينبغي أن تُرعى حق رعايتها حتى لا
تحيد الأمة عن هدفها الأسمى وغايتها المنشودة في إقامة المجتمع
الفاضل ودولة العدل والقانون.
- إن اجتماع الأفكار السابقة مؤذنٌ بالبشرى للمؤمنين بالفتح والنصر
والمزيد من التمكين في الأرض.

كما يسعدني أن أوصي بما يلي:

- إبراز الصورة الإيجابية للفتوحات الإسلامية، أو ما يسمى بالحرب
النظيفة، كي نقطع الطريق على من يحاول النيل من حقيقة الجهاد
والحرب في الإسلام.
- العناية بنشر ثقافة أخلاق الفاتحين قديماً وحديثاً لتكون نبراساً
يُحتذى أمام الأجيال المتعاقبة.

الهوامش

- في ظلال القرآن ٣٩٩٤/٦ ط ١٧، ١٤١٢هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٤. (١) انظر، مسلم، مسلم بن الحجاج ت (٢٦١) هـ / صحيح مسلم ٢٣١٨/٤ حديث رقم (٣٠٢٤)، ط ٢، ١٩٧٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٥. (١) انظر، الترمذي، محمد بن عيسى ت (٢٧٩) هـ / جامع الترمذي، كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في (إذا زلزلت ..) والحديث حسن بشواهد، ط (١) ٢٠٠٠م، بيت الأفكار الدولية، الرياض.
١٦. (١) انظر، الزركشي، محمد بن بهادر ت (٧٩٤) هـ، البرهان في علوم القرآن ج ٤/٢٠٧ ط (١) ١٤٤٨هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
١٧. (١) انظر، ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد ت (١٣٩٣) هـ التحرير والتنوير ج ٣٠/٥٩٠ ط ١٩٨٤م الدار التونسية، تونس.
١٨. (١) انظر، درويش، محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه ٦٠٦/١ ط ٤ ١٤٢٥، ١٩٩٤م، دار ابن كثير، دمشق.
١٩. (١) انظر، ابن فارس، أحمد بن فارس ت (٣٩٥) هـ، معجم مقاييس اللغة ٤٣٥/٥، ط (٣)، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر.
٢٠. (١) انظر، الراغب، الحسين بن محمد ت (٤٢٥) هـ، مفردات ألفاظ القرآن ٨٠٨، ط (٣)، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دار القلم، دمشق.
٢١. (١) انظر المصدر السابق، ٢٧٢.
٢٢. (١) الكشاف، الزمخشري ٤/٤٣٤، وانظر تفسير أبي السعود، ج ٨ / ١٠٣.
٢٣. (١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢٢١/٤. وانظر / ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت (٥٩٧) هـ، زاد المسير في علم التفسير ٤/١٣٥، ط (١) ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٤. (١) المنصوري، مصطفى الحصن، المقتطف من عيون التفسير، ٣٩/٥، ط (٢) ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار القلم، دمشق.
٢٥. (١) انظر، الزمخشري، محمود بن عمر ت (٥٣٨) هـ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٤/٢٤٢، ط (٢)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار إحياء التراث، بيروت.
٢٦. (١) انظر، ابن عطية، محمد بن عبد الحق، ت (٥٤٦) هـ، ١٣٣/٥، ط (١)، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧. (١) انظر، التفسير الكبير، الفخر الرازي، ٧٩/١٠.
٢٨. (١) انظر، البحر المحيط، أبو حيان ٩/٥٠٠.
١. انظر، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، مجلة الناشر الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة طبعة السنة السادسة والثلاثين العدد (١٢٥)، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
٢. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد ت (٧٩٥) هـ، روائع التفسير، تفسير ابن رجب، ٢١٣١ وما بعدها، ط (١) ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، دار العاصمة، السعودية.
٣. انظر، تفسير بن رجب الحنبلي ١/٢١٣ وما بعدها.
٤. (١) الدومي، محمد محمود، معالم النصر في سورة النصر، مجلة دبي للدراسات العربية الإسلامية عدد ٣٢ يونيو ٢٠١٢م.
٥. (١) انظر، البخاري، محمد بن إسماعيل ت (٢٥٦) هـ، صحيح البخاري ٤/١٩٠٠ - ١٩٠١ حديث رقم ٤٦٨٤، ط ٤ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار ابن كثير، دمشق.
٦. (١) انظر، الترمذي، محمد بن عيسى ت (٢٧٩) هـ، الجامع الكبير ٥/٢٠ ط ٢ ١٩٩٨م، دار الغرب الإسلامية، بيروت.
٧. (١) المصدر السابق، ٣٧٨/٥.
٨. (١) انظر، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ت (١٢٥٠) هـ، فتح القدير ٥/٦٢٣ ط ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، دمشق.
٩. (١) انظر، الفخر الرازي، محمد بن ضياء الدين ت (٦٠٤) هـ، التفسير الكبير ١٦/١٥١ ط ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، دار الفكر بيروت، وانظر، الصاوي، أحمد بن محمد ت (١٢٤١) هـ، حاشية الصاوي على الجلالين ٦/٣٥٠ ط (١) ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠. (١) انظر، الطبرسي، الفضل بن الحسن ٥/٥٥٤ ط ١٢٣٩هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١. (١) انظر، البغوي، الحسين بن مسعود ت (٥١٦) هـ، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ٤/٥٠٦ ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر: أبو حيان، محمد بن يوسف ت (٧٤٥) هـ، البحر المحيط ٨/٥٢٤ ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر: ابن كثير، إسماعيل بن كثير ت (٧٧٤) هـ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥٦١، دار مصر للطباعة.
١٢. (١) انظر، النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد ت (٨٥٠) هـ - غرائب القرآن وרגائب الفرقان ٦/٥٨٤ ط ١ ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣. (١) انظر، السعدي: عبد الرحمن بن ناصر ت (١٣٧٦) هـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٩٣٦) ط ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م مؤسسة الرسالة. وانظر، قطب، سيد إبراهيم،

٢٩. (١) انظر، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/١٧٣٧.
٣٠. (١) انظر، الكشاف، الزمخشري، ٤/٣٧٤.
٣١. (١) انظر، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/١٤٠.
٣٢. (١) انظر، التفسير الكبير، الفخر الرازي، ١٠/٨٧.
٣٣. (١) انظر، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/١٧٤٨.
٣٤. (١) انظر، القاسمي، محمد جمال الدين، ت(١٣٣٢)هـ، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ٩/١٢١ هـ، ط (١)، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م، دار الحديث، القاهرة .
٣٥. (١) أبو السعود، محمد ابن محمد، ت(٩٥١)هـ، تفسير أبي السعود، ج ٩/٢٠٨، ط دار احياء التراث العربي، بيروت.
٣٦. (١) انظر، الكشاف، الزمخشري، ٤/٨١٥.
٣٧. (١) انظر، التفسير الكبير، الفخر الرازي، ١١/٣٣٦.
٣٨. (١) انظر، المراعي، أحمد بن مصطفى ت (١٣٧١) هـ، تفسير المراعي ج ٣٠/٢٥٧ ط (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م)، مكتبة الحلبي ومطبعة مصطفى.
٣٩. (١) انظر، الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار ت (١٣٩٣) هـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٣٨١٩ ط ١، ١٩٩٥، ١٤١٥م دار الفكر بيروت.
٤٠. (١) انظر، المصدر السابق نفسه، ١٩/١٣٨.
٤١. (١) انظر، ابن عثيمين، محمد بن صالح ت (١٤٢١) هـ تفسير جزء عمّ ١/٣٣٩ ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، دار الثريا، الرياض.
٤٢. (١) انظر، القرطبي، محمد بن أحمد ت (٦٧١)هـ، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، ج ٢٠/١٥٧، ط(١)، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م. دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر، الألوسي، ت(١١٢٧)هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٣٠/٤٩٢-٤٩٣، ط(١)، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٣. (١) انظر، صحيح مسلم، ١/٧٢.
٤٤. (١) انظر، تفسير ابن رجب، ٢/٦٣٩.
٤٥. (١) انظر، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي ج ٢٠/١٥٧، ١٥٨، وانظر، روح المعاني، تفسير الألوسي ج ٣٠/٤٩٣.
٤٦. (١) روح المعاني، تفسير الألوسي، ج ٣٠/٤٩٣.
٤٧. (١) انظر، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/٢٣٢.
٤٨. (١) انظر، المرجع السابق ٥/٥٣٣.
٤٩. (١) انظر، مفردات في ألفاظ القرآن ٦٤٦.
٥٠. (١) انظر، تفسير ابن رجب، ٢/٦٣.
٥١. (١) انظر، عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص (٥٢٧)، ط(١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م)، دار الجبل، بيروت .
٥٢. (١) انظر، ابن منظور، محمد بن مكرم ت (٧١١) هـ، لسان العرب ٦/١٤٣-١٤٦، ط(٣)، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م، لسان العرب، ٦/١٤٣-١٤٦، وانظر، الجوهري، إسماعيل بن حماد ت (٣٩٣)هـ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ١/٥٤٨، ط(١)، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٣. (١) انظر، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ٣٩٢.
٥٤. (١) انظر، المصدر السابق، ٢٥٦.
٥٥. (١) انظر، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص (٥٠٠).
٥٦. (١) انظر، المصدر السابق ٦٣٧.
٥٧. (١) انظر، ابن هشام، عبد الملك بن هشام ت (٢١٣)هـ، السيرة النبوية ج ٤/٣٤ ط دار الجبل، بيروت.
٥٨. (١) انظر المصدر السابق ٤/٣٤.
٥٩. (١) انظر، ابن قيم، محمد بن أبي بكر ت (٧٥١) هـ، زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٠ ط ١ ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٠. (١) المرجع السابق نفسه.
٦١. (١) المرجع السابق نفسه.